مـــجـــلـــة دراســـات بيت الـــمـــقـــدس، 2021، 21(3): 411–432
DOI: 10.31456/beytulmakdis.972619

احتفالات العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج ودلالاتها من خلال الوثائق والمصادر العثمانية

متين شريف أوغلو*

ملخص: يتناول هذا البحث مسألة احتفالات العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج ودلالاتها من حيث أهمية بيت المقدس في الذهنية العثمانية، وذلك لما تمثله هذه المدينة من مكانة دينية بالنسبة إلى جميع الأديان السماوية. فمنذ أن تم افتتاحها سنة 1516م من قبل العثمانيين، ازداد الاهتمام بها أكثر، فتشكلت فيها إدارة خاصة، وأقيمت فيها العديد من المشاريع العمرانية، وطوروا فيها الخدمات، وأوقفوا عليها المنشآت الخيرية. وقد تناولت العديد من الدراسات التاريخية والسياسية مدينة القدس عبر التاريخ وفي العهد العثماني، وتحدثت عن أهميتها في خريطة التوازنات في المنطقة. غير أن هذه الدراسات لم تتناول مسألة اهتمام العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج، ولم تطرق إلى الأدبيات الفكرية والأدبية مثل المعراجيات التي تعكس مدى حضور بيت المقدس في الوعي الجمعي العثماني، فقد كان العثمانيون يولون اهتماماً كبيراً لهذه المناسبات الدينية، وبشكل خاص الاهتمام بمناسبة الإسراء والمعراج. وقد حاولنا في بحثنا هذا الاعتماد على الوثائق والمصادر العثمانية لنتتبعها، ونفهم الخلفية الفكرية والدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت تحرك العثمانيين حول الإسراء والمعراج وبيت المقدس. كما حاولنا من خلال هذه الوثائق والمصادر العثمانية معرفة أهم العادات والتقاليد والفعاليات التي كانت تقام على مستوى أبناء المجتمع، وكذلك على مستوى رجالات الدولة العثمانية، وفي مقدمتهم السلطان العثماني. وسيتم التطرق في هذا البحث إلى جملة من المحاور أهمها: 1) حرص العثمانيين على الاحتفال بالمناسبات الدينية وإحيائها؛ 2) عادات العثمانيين وتقاليدهم في الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج؛ 3) أهم المصادر العثمانية التي تناولت مسألة الإسراء والمعراج؛ 4) الخلفيات الفكرية والسياسية لمسألة الإسراء والمعراج.

الكلمات المفتاحية: بيت المقدس، المناسبات الدينية، العثمانيون، الإسراء والمعراج.

Ottoman Celebrations of the Night Journey and Ascension according to Ottoman Archival Documents and Sources

ABSTRACT: *This paper deals with the issue of the Ottomans' celebration of the Isra and al-Miraj and the significance of Bayt al-Maqdis in the Ottoman mentality. The city represents a religious position for all the heavenly religions and since it was opened in 1516 by the Ottomans, interest in it has increased. A special administration was formed in it, and many urban projects were set up, services were developed, and charitable facilities were endowed. Many historical and political studies have dealt with the city of Jerusalem throughout history of the Ottoman era, and have discussed its importance in the map of political balances in*

* أستاذ مساعد، قسم التاريخ، جامعة ماردين أرتقلو، ماردين– تركيا، metinzo1968@gmail.com

the Middle East region. However, these studies do not address the issue of the Ottomans' interest on the occasion of the Night Journey and Mi'raj, nor do they touch upon the intellectual and literary literature such as the Ma'rajiyat, which reflects the extent of the presence of Bayt al-Maqdis in the Ottoman collective consciousness. The Ottomans paid great attention to the occasion of the Isra and Mi'raj, as will be demonstrated. We have relied on Ottoman documents and sources to understand the intellectual, religious, political and social background that moved the Ottomans around the Isra and Mi'raj and Bayt Al-Maqdis. We also tried, through these Ottoman documents and sources, and to know the most important customs, traditions and events that were held at the level of the members of society, as well as at the level of the Ottoman Empire. In this paper, a number of themes will be addressed, including: the Ottomans dedication to celebrating and reviving religious occasions; the customs and traditions of the Ottomans in their celebration of the Isra and Mi'raj; the most important Ottoman sources that dealt with the issue of Al-Isra and Al-Miraj; and the intellectual and political backgrounds of the Isra and Miraj issue.

KEYWORDS: *Bayt al-Maqdis, Religious festivals, Ottomans, Isra, Miraj.*

مقدّمة

حظيت بيت المقدس باهتمام كبير من قبل العثمانيين منذ أن تم فتحها من قبل السلطان سليم الأول سنة 1516، وأصبحت تابعة للإدارة العثمانية. وقد شملت عملية الاهتمام العثماني بالقدس كل المجالات التي تهم المدينة، حيث قاموا بأشغال الإعمار وترميم المساجد والكنائس، كما عمل العثمانيون على تقديم مساعدات مالية إلى بيت المقدس، من أجل القيام بالترميمات اللازمة، وكذلك تأسيس أوقاف وتكايا تتولى مساعدة الفقراء، وتساعد المحتاجين. وقد تنافس السلاطين العثمانيون على مدار حقبهم التاريخية على الاهتمام بالقدس الشريف، بسبب أهميتها الدينية وحبهم لها. كما حرص العثمانيون على تحقيق الأمن والاستقرار والسلم المجتمعي داخل المدينة التي تتعايش فيها عدة طوائف دينية ومذاهب مختلفة، وقد كان العثمانيون على وعي تام بمسألة التنوع الديني داخل المدينة، فنجحوا في إدارته من خلال سياسة التسامح التي مارسوها، ومن خلال عهود الأمان التي منحوها إلى أهالي القدس، وتأمينهم على أرواحهم ومعقداتهم وممتلكاتهم ومعابدهم. فشعر الناس بالإطمئنان والاستقرار، وانعكس ذلك إيجابياً على الحياة الاجتماعية داخل المدينة المقدسة.[1]

كما نجح العثمانيون في خلق حركية فكرية ودينية واقتصادية في بيت المقدس جعلتها قبلة العلماء والزوار من كافة أصقاع الأرض، وأصبحت أحد أهم المراكز العلمية والفكرية المشهورة في العالم الإسلامي. وقد كان السلاطين العثمانيون يرسلون مساعدة مالية سنوية للقدس، ثم تطورت فيما بعد لتصبح قارة، وتعرف باسم الصرة، حيث تجمع هذه الأموال، وترسل كل سنة إلى القدس في جو احتفالي كبير، يشرف عليه السلطان العثماني، ويحضره الأهالي. وقد تم تعيين موظفين خاصين للصرة، يتولون

جمع الأموال من الأهالي ومن الدولة وإرسالها إلى القدس. والجدير بالذكر أن العثمانيين اهتموا بالأماكن المقدسة اهتماما كبيرا، فكان هناك صرة خاصة بالحرم النبوي الشريف، وصرة خاصة بالحرم المكي الشريف، وكذلك صرة خاصة بالمسجد الأقصى (الحرم القدسي الشريف). وهذا يعكس أهمية هذه الأماكن المقدسة في نفوس السلاطين العثمانيين وفي الوعي الجمعي العام لدى المجتمع العثماني.[2]

ولئن اهتمت أغلب الدراسات التاريخية بالإنجازات المادية والمعمارية المختلفة التي قام بها العثمانيون في بيت المقدس، إلا أن هذه الدراسات لم تقدم صورة أو معلومات تفصيلية حول موضوع اهتمام العثمانيين ببيت القدس في المناسبات الدينية، مثل مناسبة الإسراء والمعراج، والرغائب، والأعياد وغيرها من المناسبات.[3] حيث كان العثمانيون يحتفلون بهذه المناسبات التي تكشف مدى حب العثمانيين لبيت المقدس، وحضورها في الوعي الديني والسياسي والاجتماعي العثماني. وقد قدمت لنا الوثائق العثمانية صوراً مختلفة عن أشكال احتفالات العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج، وأهم العادات والتقاليد والفعاليات التي كان يقومون بها في هذه المناسبة المقدسة. كما أشارت هذه الوثائق والمصادر العثمانية إلى الأهمية الكبرى التي كان العثمانيون يولونها إلى بيت المقدس في مناسبة الإسراء والمعراج، وحرصهم الدائب على الاحتفال بها.[4]

لقد عكس حرص العثمانيين على الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج مكانة بيت المقدس وأهميتها الدينية والفكرية والحضارية لدى العثمانيين على اختلاف مستوياتهم الاجتماعية. بل إن هذه الاحتفالات كانت تلقى دعماً كبيراً من قبل السلاطين العثمانيين الذين كانوا يصدرون مراسيم للاحتفال بهذه المناسبات الدينية، وتتكفل الدولة بمصاريف الاحتفال، إضافة إلى تجهيز محفل صرة القدس الشريف، وإرسالها إلى هناك في جو احتفالي مفعم بمشاعر الحب والعشق لبيت المقدس مسرى النبي عليه السلام ومعراجه إلى السماء.[5]

لذلك سأحاول من هذا المنطلق تسليط الضوء في هذا البحث على مسألة احتفال العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج من خلال الوثائق والمصادر العثمانية، والتركيز على أهم النشاطات والفعاليات التي تقام في هذه المناسبة، سواء داخل المجتمع العثماني أو من قبل رجال الدولة العثمانية. وسيتم التطرق في هذا البحث إلى جملة من المحاور أهمها: اهتمام العثمانيين بالمناسبات الدينية وحرصهم على إحيائها، واهتمام العثمانيين بإحياء مناسبة الإسراء والمعراج وأهم العادات والتقاليد والفعاليات التي يتم القيام بها، وكذلك الخلفيات الفكرية والدينية والسياسية والاجتماعية للاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج.

أهداف البحث: نرمي من هذا البحث تحقيق الأهداف التالية:

- معرفة أهمية بيت المقدس في العهد العثماني.

- معرفة اهتمام العثمانيين بالمناسبات الدينية، خصوصا مناسبة الإسراء والمعراج.
- أهمية الاحتفال بالإسراء والمعراج بالنسبة إلى العثمانيين.
- معرفة أهم الأنشطة والعادات والتقاليد التي كان يمارسها المجتمع العثماني في مناسبة الإسراء والمعراج.
- معرفة أهمية بيت المقدس في الوعي الجمعي العثماني من خلال احتفالات الإسراء والمعراج.

منهجية البحث: سأتبع في بحثي هذا منهجية التحليل التاريخي والوصفي، والاستناد إلى استقراء جملة من الوثائق والمصادر العثمانية المتصلة بموضوع البحث، كما سأستند إلى المنهج التفكيكي الذي يفكك مسألة الاحتفال بالإسراء والمعراج إلى أبعادها الاجتماعية والسياسية والدينية والحضارية، ثم إعادة تركيبها ضمن نظرة شاملة تربط بين كل هذه الأبعاد المتعددة لفهم الموضوع من زوايا مختلفة، كما سيتم تناول الموضوع من خلال المباحث التالية:

- مقدمة: سيتم فيها تناول اهتمام العثمانيين ببيت المقدس منذ فتحها.
- المبحث الأول: اهتمام العثمانيين بالمناسبات الدينية وحرصهم على إحيائها.
- المبحث الثاني: احتفال العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج من خلال الوثائق والمصادر العثمانية.
- المبحث الثالث: أهم النشاطات والفعاليات التي يقوم بها العثمانيون في مناسبة الإسراء والمعراج.
- المبحث الرابع: الخلفية الفكرية والسياسية لاحتفال العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج.
- خاتمة: سيتم فيها التطرق إلى أهم النتائج التي توصلنا إليها من خلال هذا البحث.

1. اهتمام العثمانيين بالمناسبات الدينية وحرصهم على إحيائها

تجدر الإشارة في البداية إلى أنه لا يمكن قراءة مسألة الاحتفال بالإسراء والمعراج إلا من خلال سياق أشمل، وهو سياق اهتمام العثمانيين وحرصهم على الاحتفال بالمناسبات الدينية بشكل عام، باعتبار أن مناسبة الإسراء والمعراج هي واحدة من هذه المناسبات الدينية التي كان يتم الاحتفال بها في العهد العثماني. حيث كان العثمانيون يعطون أهمية كبرى للاحتفال بالمناسبات الدينية والليالي المباركة، وكانوا ينظمون فعاليات مختلفة تتناسب وأهمية كل مناسبة دينية، مثل: عيد الفطر وعيد الإضحى والمولد النبوي الشريف وليلة النصف من شعبان وليلة القدر، وكذلك مناسبة الإسراء والمعراج وغيرها. حيث كان الأهالي ورجالات الدولة يستعدون بشكل خاص إلى هذه المناسبات للقيام باحتفالاتهم، والقيام بإحيائها، سواء على مستوى العبادات أو على مستوى الزيارات، وتقديم التهاني والتباريك للأهالي فيما بينهم. كما كان رجال الدولة ينظمون مراسم لاستقبال الشخصيات المعتبرة من علماء ومن أعيان وشخصيات مهمة في الدولة والمجتمع. ورغم أن شكل الاحتفالات بهذه المناسبات قد عرف تطوراً لدى الأتراك

المسلمين، إلا أنها ظلت تحافظ على طابعها الإسلامي العام لدى العثمانيين الذين كانوا ينظرون إلى هذه الاحتفالات على أنها تعبير عن حبهم للإسلام، وتشكل حدثا ثقافياً مركزياً في حياتهم الخاصة والعامة.[6]

لقد كان الاهتمام العثماني بهذه المناسبات الدينية والليالي المباركة نابعا مما ورد ذكره في القرآن الكريم مثل ليلة القدر، أو ما ورد في الأحاديث النبوية الشريفة، مثل ليلة النصف من شعبان، أو ليلة الإسراء والمعراج التي ستكون محور حديثنا في هذا البحث. والحقيقة أن احتفال العثمانيين بهذه المناسبات الدينية لم يولد من فراغ، وإنما ورثوه من الدولة السلجوقية التي كانت تعنى بشكل كبير بهذه المناسبات، وصنعت لنفسها عادات وتقاليد وأشكالاً في الاحتفال بها، وتحول إلى عادة وثقافة لدى الأتراك المسلمين ومن بينهم العثمانيون، وأصبحت ثقافة مجتمعية ورسمية لدى رجالات الدولة العثمانية. وقد كان السلاطين العثمانيون يهتمون بهذه المناسبات، ويحتفلون بها بأشكال مختلفة. إلا أنه يمكن القول: إن هذه الاحتفالات أخذت طابعها الرسمي والتنظيمي مع السلطان سليم الثاني الذي أصدر أوامر رسمية بإضاءة منارات المساجد بالقناديل في هذه الليالي المباركة، تعبيراً عن الاحتفال والفرحة بها، ووضعت أسماء خاصة لها في اللغة التركية القديمة تميز كل ليلة أو مناسبة عن أختها.[7]

وقد أصبحت هذه الاحتفالات في الذهنية العثمانية شكلا من أشكال العبادات والتقرب بها إلى الله تعالى، وتعبيراً عن الالتزام بشعائر الدين، والحرص على تأديتها. وكانت الأجواء في عاصمة العثمانيين استانبول تتغير، وتشهد حركية كبيرة عند حلول مثل هذه المناسبات، حيث تنشط الأسواق، وشراء المستلزمات الضرورية للقيام بالأطعمة والحلويات المناسبة لهذه المناسبات. كما كانت منارات المساجد في استانبول تضاء بقناديل، وتشهد حركية كبيرة واكتظاظا بالمصلين القادمين إلى المساجد لإحياء هذه الليالي المباركة، ولتجديد الروح ومعنوياتها، والتقرب من الله أكثر. وكان العثمانيون ينظمون ابتهالات دينية في المساجد ، ويتم إنشادها من قبل منشدين لهم أصوات جميلة ومؤثرة، تتغنى بمقامات مختلفة، وتؤدى في وسط تأثر وتفاعل المصلين القادمين إلى المسجد. وكان من بين هذه الأناشيد الصلوات على النبي عليه السلام، وابتهال المعراجية التي لا زال الأتراك إلى يومنا هذا يقرؤونها في مثل هذه المناسبات، خصوصا في مناسبة الإسراء والمعراج.[8]

من ناحية أخرى تحول الاحتفال بهذه المناسبات إلى بيوت العثمانيين، فكانت العائلات العثمانية توقد القناديل في بيوتها، وتحتفل العائلة والأقرباء مع بعضهم البعض، تعبيرا عن الفرح والحب لهذه المناسبات المباركة التي تصل عند بعض الأهالي إلى درجة التقديس لشدة اهتمامهم بها. كما كانت العائلات العثمانية في هذه المناسبات تقوم بصناعة الحلويات والأطعمة اللذيذة، ويوزعونها فيما بينهم وعلى الجيران، بل يوزعونها في الشوارع وفي المساجد. وقد ساهمت مثل هذه الاحتفالات في تقوية

الروابط المجتمعية، وخلقت حالة من التصالح والتقارب بين أفراد المجتمع العثماني. كما ساهمت في نشر معنويات جديدة لدى الفرد العثماني، وحثه على تنقية ذاته من الذنوب والأخطاء التي قام بها خلال الفترة الماضية. وأصبحت هذه المناسبات فرصة لكي يصلح بها الفرد علاقته مع ربه، وعاملاً أساسياً ووسيلة فعالة في إصلاح الفرد ذاتياً، وفي تقوية الروابط المجتمعية، ونشر الحب والتسامح.[9]

وقد تحدثت الوثائق والمصادر العثمانية عن أهمية احتفال العثمانيين بهذه المناسبات الدينية والليالي المباركة، وعن التشريفات والمراسم التي كان يقوم بها رجال الدولة العثمانية في احتفالاتهم بهذه المناسبات. وتعد مثل هذه الاحتفالات سواء من قبل المجتمع أو من قبل رجال الدولة من العادات الحسنة التي دأب عليها العثمانيون، وتأثر بها العرب وبقية الشعوب الإسلامية الأخرى، كما حرص العثمانيون على نشرها في بقية الولايات العثمانية. وكانت كل ليلة تحمل بعداً معنوياً خاصاً، وتكتسي أهمية متميزة في نفوس العثمانيين. وبالإضافة إلى مناسبتي عيد الفطر وعيد الإضحى يمكن أن نذكر بإيجاز أهم هذه الليالي المباركة التي كان العثمانيون يحتفلون بها، ويعطونها أولوية في حياتهم على مستوى المجتمع والدولة، ومنها:

- **مولد شريف قنديلي** (المولد النبوي الشريف): حيث كان العثمانيون يولون اهتماماً كبيراً لهذه المناسبة التي تعكس مدى حبهم للنبي محمد عليه السلام، وأهميته في نفوس العثمانيين وفي رجالات الدولة. لذلك كان شهر ربيع الأول هو شهر الاحتفالات والنشاطات المختلفة التي تقام للاحتفال بهذه المناسبة الكبرى. ويسميها العثمانيون ب"مولد قنديلي" أي "قنديل المولد"، هاتان كلمتان عربيتان تحملان دلالات عميقة عند العثمانيين، أهمها أن المولد هو النور والضياء، ولذلك أضيفت كلمة قنديل للدلالة على البعد النوراني لهذه المناسبة التي ولد فيها النبي عليه السلام، فبدد بنوره ظلام البشرية.[10]
- **إسراء ومعراج قنديلي (ليلة الإسراء والمعراج):** تعد محور حديثنا في بحثنا هذا، والذي سيتناول بشكل خاص اهتمام العثمانيين بليلة الإسراء والمعراج، لما لهذه الليلة والحادثة من مكانة كبرى لدى العثمانيين، سواء على مستوى الوعي المجتمعي أو على مستوى الوعي السياسي لدى رجالات الدولة العثمانية. حيث تكتسي هذه الليلة قيمتها وقدسيتها باتصالها بشخصية النبي عليه السلام ومعراجه إلى السماء، وكذلك بقدسية المسجد الأقصى الذي أسري إليه النبي عليه السلام. ولا يختلف العثمانيون عن بقية المسلمين في احتفالهم بهذه المناسبة، إلا أن هذه الليلة أصبحت ثقافة، وترسخت في ذهن المجتمع العثماني، كما أن الاحتفال كان يلقى الاهتمام الكبير من قبل السلطان وكل رجالات الدولة، وتنظم مراسم احتفالية خاصة بها. وقد تحدثت الوثائق العثمانية عن مراسم الاحتفال وعن اهتمام العثمانيين بليلة الإسراء والمعراج.[11]

- **رغايب قنديلي**: تصادف هذه الليلة الأسبوع الأول من الأشهر الثلاثة: رجب وشعبان ورمضان، وقد كان العثمانيون يحتفلون بها في أول ليلة من شهر رجب، حيث يعتقد الأتراك أن هذه الليلة هي التي نزل فيها رسول الله عليه السلام إلى رحم أمه آمنة. وقد كان العثمانيون يحتفلون بها، ويترقبون مجيئها، وينظرون إليها على أنها الليلة التي نزل فيها فخر الكائنات محمد عليه الصلاة والسلام، وكان العثمانيون يكثرون من الصلاة على النبي، ويحمدون الله كثيراً. وقد تحدث عن ذلك شمس الدين السامي في قاموسه المسمى" قاموس تركي"، وذكر أن هذه الليلة تعد أحد الليالي الخمس المباركة التي يحفتل بها العثمانيون، ويولونها اهتماماً كبيراً.[12]
- **برآت قنديلي** (ليلة النصف من شعبان): ويسميها العثمانيون أيضا ليلة الرحمة أو ليلة السند أو الصك، أي صك الرحمة والمغفرة من الله إلى عباده المؤمنين. وقد تحدثت الوثائق العثمانية عن اهتمام العثمانيين بهذه الليلة اهتماماً خاصاً، ويقومون بإحيائها أملاً في مغفرة الله لهم ورحمته. ويتضح من خلال الوثائق العثمانية أن الاحتفال بمراسم ليلة النصف من الشعبان بدأ في عهد السلطان العثماني مراد الثالث، وبمبادرة من نجم الدين أفندي. وقد استمر الاحتفال بهذه الليلة إلى أواخر الدولة العثمانية، ولا زالت إلى يومنا هذا.[13]
- **قدير كجه سي** (ليلة القدر): استخدم العثمانيون اسم هذه الليلة مثلما هو في اللغة العربية، دون إضافة كلمة قنديل، فترجمت من اللغة العربية إلى اللغة العثمانية "قدير كجه سي". وتعد هذه الليلة من أهم الليالي الخمس التي كان العثمانيون يهتمون بها، ويقدسونها تقديساً كبيراً، لورود ذكر عظمتها وبركتها في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية الشريفة. وكبقية المسلمين في كافة أنحاء الأرض كان العثمانيون مجتمعاً ودولة يحتفلون بهذه الليلة احتفالاً عظيماً، ويحيونها في العبادة والابتهال إلى الله. وهذا في الحقيقة يعكس مدى اقتراب العثمانيين من الله، وشدة تمسكهم بدينهم وبماورد في القرآن والسنة. وكانت تصدر مراسم من قبل السلطان العثماني بالاحتفال بهذه الليلة المباركة في المساجد، وقراءة القرآن والابتهالات والمدائح الدينية. وكان الناس يقبلون على المساجد مع أطفالهم، فتكتظ بهم، وتتعالى الأصوات بالدعاء والتضرع إلى الله. وكان السلطان ورجال الدولة يشاركون المصلين في الاحتفال بهذه الليلة في جامع آياصوفيا في زمن السلطان عبد المجيد، ثم أصبح السلطان يشارك في الاحتفال في أقرب مسجد له.[14] وقد تم في عهد السلطان عبد الحميد الثاني تنظيم مراسم احتفالية خاصة بليلة القدر، يحضرها السلطان وعائلته وكبار الشخصيات في الدولة، وكذلك العلماء والأعيان.[15]

إن ما يمكن أن نخلص إليه في هذا المبحث هو مدى اهتمام العثمانيين بهذه الليالي المباركة، سواء على المستوى المجتمعي أو على مستوى السلطان العثماني وباقي رجالات الدولة. كما إن هذا الاهتمام يعكس مدى تجذر القيم الإسلامية والمناسبات الدينية في نفوس أبناء الدولة العثمانية، ومدى احترامهم

لها، ولما يتصل بها من معاني روحية ودينية وسياسية وحضارية واجتماعية عميقة. وقد تناولنا بشكل مختصر اهتمام العثمانيين بهذه الليالي لكي نفهم بها شكل تعامل العثمانيين مع ليلة الإسراء والمعراج التي لا تختلف في مراسمها واحتفالاتها عن بقية الليالي، ولكنها تحمل معاني وخلفيات متعددة يتداخل فيها الديني بالسياسي وبقدسية الزمان والمكان. فالإسراء والمعراج هي واحدة من هذه الليالي الخمس التي تحدثت عنها الوثائق العثمانية، وبينت مدى تفاعل العثمانيين ورجالات الدولة معها، والأبعاد والخلفيات التي كانت تحركهم في ذلك.[16]

فكيف كانت إذن احتفالات العثمانيين بهذه الليلة المباركة؟ وماهي الخلفيات التي كانت تحركهم؟ وكيف انعكس هذا على أهمية بقيت المقدس ومكانتها في نفوس العثمانيين؟ وكيف نقرأ ذلك من خلال المصادر العثمانية المختلفة؟

2. احتفال العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج من خلال الوثائق والمصادر العثمانية

أشكال احتفال العثمانيين بليلة الإسراء والمعراج ودلالاتها

تعد مناسبة ليلة الإسراء والمعراج من أهم المناسبات التي اهتم بها العثمانيون، سواء على المستوى الشعبي أو على المستوى الرسمي، حيث تذكر الوثائق العثمانية أن الاحتفال بهذه المناسبة حافظ عليه العثمانيون، وظل حاضراً بعمق في أذهانهم ومشاعرهم، واستمرت مراسم الاحتفال بهذه المناسبة في المساجد وفي التكايا والزوايا حتى نهاية الدولة العثمانية. وقد حرص السلاطين العثمانيون، خصوصاً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني أن يكون الاحتفال بهذه المناسبة في شكل تقاليد رسمية، تتم في جامع السلطان أيوب باستانبول، حيث تقرأ المعراجية، ثم يتم بعد ذلك القيام بقراءة ختمة القرآن الكريم، كما كانت الطرق الصوفية والتكايا والزوايا تشارك في الاحتفال بهذه المناسبة التي تحولت إلى ثقافة وتقاليد عند العثمانيين، لا يمكن الاستغناء عنها.[17]

ومما يلفت الانتباه هو أن العثمانيين كانوا يحرصون بشكل أساسي على الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج، وكان رجال الدولة وفي مقدمتهم السلطان يشجع الأهالي والطرق الصوفية والزوايا على الاحتفال بهذه المناسبة التي تحمل رمزية كبيرة جداً في نفوس العثمانيين لبعدها الديني القدسي، والمتصل بشخصية النبي عليه السلام وصعوده إلى السماء، وكذلك لاتصال هذه المناسبة ببيت المقدس التي أسري إليها النبي عليه السلام، وعرج منها إلى السماء. ولذلك أخذ الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج أهمية عميقة لدى العثمانيين، لما تحمله من قدسية للنبي عليه السلام، وقدسية المكان وهي بيت المقدس، وكذلك قدسية الزمان وهي ليلة الاسراء. وقدسميت هذه الليلة بقنديل معراجي، أي قنديل المعراج الذي يحمل معنى الإضاءة والنور، ضياء النور النبوي الذي فاضت فيه معاني النور على الزمان والمكان. وتذكر

الوثائق العثمانية أن الدولة كانت تتكفل بمصاريف الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج، وتصرف لها من الخزينة الخاصة للدولة، وهذا يعكس الأهمية الكبرى التي تتميز بها احتفالية ليلة الإسراء والمعراج لدى العثمانيين.[18]

وكانت تقرأ في الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج عدة مدائح مختلفة، مثل الابتهالات والصلاة على النبي والمحمدية والمعراجية وأناشيد المولد النبوي الشريف. وقد تحدثت المصادر العثمانية المختلفة عن أهمية الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج، وتغنى العثمانيون بها، وأنشدوا أشعاراً تعكس معاني العشق العثماني لليلة الإسراء والمعراج، وعشقهم للنبي ولبيت المقدس. ولعل من أشهر الأشعار التي قيلت في الإسراء والمعراج قصيدة المعراجية المشهورة التي كانت تقرأ في هذه الليلة، واستمرت قراءتها حتى نهاية الدولة العثمانية. بل مازال الشعب التركي يتغنى بها إلى يومنا هذا. فالمعراجية هي واحدة من أهم المدائح الدينية التي تم تلحينها من قبل عثمان داده، وتعد من أطول الآثار الموسيقية التي تغني بها العثمانيون، ولا زالوا إلى يومنا هذا يتنشدونها في الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج. وقد استمر إنشاد قصيدة المعراجية حتى بعد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني الذي كان يولي اهتماماً كبيراً بقراءة المعراجية، ويعجب بلحنها الموسيقي والغنائي القديم.[19]

ولم تكن المعراجية هي الأناشيد الموسيقية الوحيدة التي تنشد في ليلة الإسراء والمعراجية، بل كانت هناك مقاطع موسيقية أخرى مختلفة تبرز حالة العشق المبثوث في الروح العثمانية، وعشقهم للمسجد الأقصى وللنبي عليه السلام، ولفيض الفرح والانتشاء بحلول ليلة الإسراء والمعراج. ومن بين هذه المقاطع الموسيقية، نجد مديحا يبدأ صدر بيت القصيدة فيه بـــ "مطلع النور أنت يا مصطفى"، وهو مقطع مغنى ينشده العثمانيون بأصوات جميلة، تعكس مدى حبهم للنبي مبعث النور. كما نجد ترنيمة موسيقية تعود كلماتها إلى الصوفي الزاهد "يونس أمره"، والتي يبدأ صدر بيتها بقوله: "أيا جبرائيل بلغ سلامي إلى خليلي"، أي يا جبرائيل أبلغ سلامي إلى الحبيب محمد الذي عرج معك إلى السماء من بيت المقدس. وكان العثمانيون أيضا في هذه الليلة ينشدون مقاطع موسيقية أخرى، من أشهرها أيضا مقطوعة موسيقية تعود كلماتها إلى المتصوف أشرف أوغلو الرومي الذي يستهلها بصدر يقول فيه: "أيا سيد الأنبياء جميعا يامحمد" ، في إشارة إلى ليلة الإسراء حيث صلى النبي بكل الأنبياء في بيت المقدس التي كانت مؤتمرا لكل الأنبياء في تلك الليلة، وكان النبي عليه السلام إمامهم وسيدهم في تلك الليلة، وقد تم تلحين هذه المقطوعة بألحان مختلفة من قبل عدة ملحنين، وكذلك كانت هناك مقطوعة أخرى جميلة تعود كلماتها إلى الصوفي يونس أمره، حيث يقول في مستهلها : "في ليلة جاء البراق من الله إلى محمد..".[20]

ويمكن القول إن مراسم الاحتفال بالإسراء والمعراج لا تختلف كثيرا في أشكالها عن بقية مراسم الاحتفال في بقية المناسبات الدينية، لأن هذه المناسبات صارت تشكل جزءاً أساسياً من عادات العثمانيين وتقاليدهم وحياتهم الثقافية. غير أن الشيء الذي يميز احتفالية الإسراء والمعراج أنها تحمل أهمية كبرى من حيث رمزيتها وقدسيتها، فهي من ناحية مناسبة فيها احتفال بالرسول عليه السلام، وكذلك بمكان الإسراء وهي بيت المقدس، وكذلك حادثة المعراج إلى السماء. لذلك فهي احتفالية متعددة الدلالات والايحاءات القدسية، ويظهر هذا من خلال الكلمات التي تتضمنها الابتهالات والأناشيد الدينية، فهي من ناحية تتغنى بالنبي عليه السلام، ومن ناحية تنشد رفعة مقامه على الأنبياء بصعوده الى السماء، ومن ناحية أخرى تتغنى ببيت المقدس التي شرفها الله بحادثة الإسراء والمعراج، كما شرفه الله بأنه مكان تجمع كل الأنبياء بقيادة النبي محمد عليه السلام. إن هذه الدلالات المختلفة التي تحملها حادثة الإسراء والمعراج ترسخت في الذهنية العثمانية، سواء كان على المستوى الشعبي أو على مستوى رجالات الدولة، لذلك كانت الاحتفالية بهذه المناسبة احتفالية لها قيمة وأهمية عندهم.[21]

قصيدة المعراجية أو معراجنامه ودلالاتها

تسمى أيضا في اللغة الفارسية "معراجنامه"، وهي اسم مركب من كلمة عربية "معراج" وكلمة فارسية " نامة" أي الرسالة، وأصبح اسمها في اللغة التركية "معراجية". وتعد المعراجية واحدة من أهم المصادر العثمانية التي يمكن من خلالها فهم البعد الفلسفي والصوفي والوعي الجمعي لدى العثمانيين تجاه حادثة الإسراء والمعراج، وكذلك أهمية بيت المقدس الذي وقعت فيه حادثة معراج النبي عليه السلام إلى السماء. كما مثلت المعراجية أحد أهم الآثار الأدبية في الأدب الفارسي والأدب التركي على حد سواء، بل كان لها الأثر البالغ في كافة الآداب الإسلامية، باعتبارها تتناول موضوعا يهم كل المسلمين على اختلاف أعراقهم وقومياتهم. ظهرت المعراجية أو معراجنامه في البداية في شكل مقاطع شعرية من قبل سليمان عطا أحد مريدي الشيخ أحمد يسوي في نهاية القرن الثاني عشر ميلادي.[22]

وقد بدأت قصيدة المعراجية تنتشر في كامل منطقة الأناضول مع منتصف القرن 14م مع عاشق باشا الذي يعد أول من نظم المعراجية، وطورها ووسع في أبياتها الشعرية، وباتت منتشرة في كامل منطقة الأناضول التي تحولت إلى منطقة إسلامية تركية. غير أنه يجب التذكير بأن قصيدة المعراجية كانت متعددة، فقد ظهرت عدة معراجيات نظمت من قبل العديد من الشعراء الأتراك الذين تغنوا بحادثة الإسراء والمعراج. ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: معراجية عشقي مصطفى أفندي، معراجية فاطمة كاملة، منظومة معراجية همت أفندي، معراجية إسماعيل حقي البورسوي وغيرهم. وقد زاد انتشار هذه الأنواع من المعراجيات في منطقة الأناضول بداية من القرن 15م، خصوصا بعد فتح استانبول سنة

1453م من قبل السلطان محمد الفاتح الذي كان شاعراً ويتذوق جمالية الشعر، وكان يحب منظومة المعراجية. وقد ظهر في زمنه عدة شعراء للمعراجية، ويتغنون بحادثة الإسراء والمعراج وببيت المقدس، مستلهمين معانيها من القرآن الكريم وجماليته ومن الأحاديث النبوية الشريفة التي تروي قصة إسراء معراج النبي عليه السلام، وإمامته لكل الأنبياء في بيت المقدس، ومعراجه بالبراق إلى السماء رفقة جبريل عليه السلام. وكان الشعراء العثمانيون في مختلف معراجياتهم قد تطرقوا إلى نفس هذه المواضيع وبأساليب مختلفة، مما يعكس حالة العشق لحادثة الإسراء وللنبي عليه السلام ولبيت المقدس، مصورين في ذلك أهمية هذه الحادثة بالنسبة إليهم وبالنسبة إلى كل مسلم.[23]

أ- معراجية الشاعر العثماني مجيدي

ويمكن اعتبار معراجية الشاعر العثماني مجيدي واحدة من أهم المعراجيات التي انتشرت بشكل واسع داخل المجتمع العثماني وفي منطقة الأناضول، وهي تشبه إلى حد كبير في أسلوبها قصيدة البردة للإمام البصيري القيرواني، والتي مازال العرب، خصوصاً في شمال إفريقيا يتغنون بها وينشدونها في احتفالاتهم وأعراسهم ومناسباتهم الدينية المختلفة. ويعود هذا التشابه إلى حالة الحب العميق للنبي عليه السلام، وإلى الاشتراك في نفس المرجعية الدينية التي أثرت في مضامينها على القول الشعري وعلى الأدب العربي والتركي على حد سواء. إلا أن مايميز منظومة المعراجية عن منظومة بردة البصيري أن هذه الأخيرة كانت تتغنى بحب النبي وبصفاته وبخصاله وبمقامه لدى الشاعر، بينما المعراجية انطلقت من حادثة الإسراء والمعراج، ليجعل منها الشاعر معراجا لحب النبي ولليلة الإسراء ولبيت المقدس التي أسري إليها النبي عليه السلام وعرج منها إلى السماء. فكلا المنظومتين تشتركان في حب النبي ومدحه، لكن تبقى المعراجية تركز على حادثة الإسراء والمعراج ليعبر فيها الشاعر عن حبه للنبي ولبيت المقدس.

منظومة المعراجية تعد إذن من أهم المصادر التركية العثمانية التي تناولت مسألة الإسراء والمعراج، وجعلت منها وسيلة لمدح الله تعالى، حيث يستهل الشاعر مجيدي بمدح الله والثناء، والاعتراف المطلق بوحدانيته وبقدمه، وبأنه المعبود الأوحد، المتصف بالوحدانية والكمال المطلق. وهنا يقول الشاعر في هذا المعنى، مستخدما عبارات تعكس الحالة الصوفية وحالة العشق التي تسكن روح الشاعر، وتبين مدى تناغمه مع عالم الروحانيات والذوبان في ملكوت الوحدانية يقول:[24]

Ezelden evvel ol Allâh ma’bûd
Ki vahdet bâbını kılmışdı mesdûd

ثم ينتقل الشاعر في معراجيته إلى الحديث عن مدح النبي عليه السلام الذي أُعطِي لواء الحمد عندما أسري به من بيت الله الحرام إلى بيت المقدس، وأعرج به نحو السماء، ليلتقي فيها الحبيب بحبيبه، وتفيض الأنوار القدسية، وتعم كل العالمين. يقول الشاعر في إحدى أبياته من المعراجية، مبينا قدوم جبرائيل في

ليلة للنبي عليه السلام ليخبره بالبشرى الكبرى بأن الله يرغب في لقاء حبيبه، وأنه اصطفاه حبيبه، ويرغب في لقائه ورؤيته وهو يراه، وأي شرف هذا للنبي عليه السلام عندما يرغب رب الوجود في لقائه ورؤيته والحديث معه، وفي هذا السياق يقول الشاعر مجيدي:[25]

Gelüp bir gice didi peyk-i hazret
Seni mi'raca Allaha itdi da'vet
Ki tur ya mustafa hoş eyle seyran
Seni görmek diler ol yüce sultan

فالشاعر هنا في هذين البيتين يبين أن جبرائيل عليه السلام قدم إلى الرسول عليه الصلاة والسلام في مكة، وأخبره بمسألة الإسراء والمعراج، وأن الله تعالى يدعوه لكي يسري به عبر البراق إلى المسجد الأقصى، ويعرج به من هناك نحو السماء.[26] وتجدر الإشارة هنا إلى أن المعراجية في أبياتها الأولى تتحدث عن حب الله وعن حب الرسول عليه السلام وعن طلب المغفرة، ثم ينتقل الشاعر بعد ذلك إلى الحديث عن حادثة الإسراء والمعراج. وكأن هذا الأسلوب هو تهيئة السامع روحياً، وإثارة روحه، وبعث مشاعر الشوق إلى الله وحبيبه محمد، ثم ينتقل ليصف مشهد أنوار ليلة الإسراء والمعراج التي تغشت بيت المقدس في احتفال نبوي مهيب، صلى فيه النبي عليه السلام بكل الأنبياء، وصعد إلى السماء مع جبرائيل نحو اللقاء الأبدي. لقد ظلت أغلب الأبيات في هذه المعراجية تفيض بمعاني الحب والوجد والاصطفاء الرباني للنبي عليه السلام، وتشريفه بالإسراء والمعراج من دون بقية الخلائق، وهنا يقول مجيدي في نفس معراجيته:

Ki cismiyle anunçün kıldı mi'râç
Ki olmaya delile anda muhataç

يعتبر هذا البيت هو البيت الذي ينتقل فيه الشاعر مجيدي للحديث عن حادثة الإسراء والمعراج بشكل مباشر، والحديث عن رحلة النبي عليه السلام رفقة جبرائيل عليه السلام نحو المسجد الأقصى، ثم المعراج نحو السماء. وقد عبر فيه الشاعر مجيدي عن حادثة الإسراء إلى المسجد الأقصى بمشاعر مفعمة بالعشق والوجد وبعبارات تليق بمقام النبوة وبقدسية الزمان والمكان، حيث المسجد الأقصى الذي شهد اجتماع كل الأنبياء، ليتوج النبي عليه السلام في القدس سيد الأنبياء وسيد كل الكائنات، ثم بعدها يتم الصعود إلى السماء، حيث يصل النبي إلى مكان لم يدخله أحد حتى الملائكة المقربون.

هكذا يصور مجيدي في معراجيته هذه المعاني، ويصورها في أبيات جميلة تعكس هذا اليقين والإيمان العميق للشاعر العثماني ولكل العثمانيين بأهمية ليلة الإسراء وأهمية بيت المقدس. فكلمات الشاعر تنطلق من لحظة الإسراء من بيت الله الحرام نحو بيت المقدس، ثم اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم بجميع الأنبياء في المسجد الأقصى وإمامته لهم، حيث نال لواء الحمد وشرف السيادة والتشريف على كل الكائنات. يشير مجيدي في جملة الأبيات إلى أن المسجد الأقصى قد نال بحادثة الإسراء شرف الأفضلية

على أي مكان في هذا الوجود، فمنه صعد النبي عليه السلام لأفضل لقاء على الإطلاق، وبذلك فاضت على القدس وعلى المسجد الأقصى أنوار الجمال والجلال والقدسية. كل هذه المعاني حاول مجيدي في معراجيته أن يذكرها، وأن يصورها، ويصور معها لحظات اللقاء في السماء، مستلهما في ذلك معاني القرآن الكريم وتعابيره الجمالية، ليزيد جمالية على معراجيته، ويزيد من مشاعر العشق والشوق لدى سامعيه.[27]

ب- معراجية فخر العالم للشاعر العثماني حاجي عزت باشا

المعراجية الثانية المشهورة في العهد العثماني هي المعراجية المسماة بـــ "بمعراج فخر العالم" للشاعر العثماني حاجي عزت باشا، حيث نجد فيها تدفقاً لمعاني الحب والعشق للنبي عليه السلام الذي يمثل فخر العالم وشرفه. معراجية فخر العالم منظومة شعرية، صيغت بلغة موسيقية، تتداخل فيها مشاعر متدفقة تسكن الشاعر مع أحداث ليلة الإسراء والمعراج وتفاصيل حدوثها. ويمكن القول: إن هذه المعراجية اشتهرت أكثر من غيرها، وذلك لتنوع الأغراض الشعرية فيها، وانصهارها ضمن الموضوع الأساسي وهو العشق الإلهي والحب النبوي. فتحدث الشاعر عن لقاء الحب الأبدي في حادثة إسراء النبي عليه السلام ومعراجه، لقاء يلتقي فيه الحبيب مع حبيبه، فتفيض أنوار الحب على كل المحبوبين في العالم، ويتحول النبي إلى فخر كل المحبين في حضرة الذات الإلهية، يقول الشاعر عزت باشا في منظومته معراج فخر العالم:[28]

Bu sebebdendür ki Hallâk-ı cihân
Çün nazar kıldı kulûba der-nihân
Gördi kalb-i Ahmedi a'şak idi
Hançer-i ışk ile san münşakk idi

تبين هذه الأبيات أن الله اطلع على قلوب مخلوقاته، ونظر فيها، فوجد أن قلب النبي عليه السلام أكثر القلوب العاشقة، وأن قلبه يشبه سيفاً منقسماً إلى نصفين، يشعان بالنور الساطع الخالص. قلب الرسول العاشق للذات الإلهية والذي يفيض بالنور الصافي فاق كل القلوب، وجعله القلب البشري الوحيد الأجمل والأشد نوراً وصفاءً وضياءً في دنيا الوجود. نلاحظ أن التشبيه الذي استخدمه الشاعر في هذا البيت تشبيهاً بديعاً يليق بمقام النبوة، ويعكس الحس الصوفي المرهف لدى الشاعر. وقد استهل الشاعر معراجيته بالحديث عن عملية الاختيار الإلهي لأفضل معشوق من بين خلائقه، فوجد أن أفضل القلوب العاشقة المتوضئة بالنور الحقيقي هو قلب الرسول عليه السلام. لذلك جاءت البشرى الربانية لكل العالم بأنه اختار محمدا فخراً لكل الكائنات، وأنه المخلوق الوحيد الذي حاز شرف الاختيار الإلهي للقائه، لأنه فاق بأنواره وصفائه وعشقه بقية الكائنات، ويقول الشاعر في هذا الصدد:[29]

Işk içinde çünki fâ'ik oldı ol
Da'vet-i mi'râca lâ'ik oldı ol

İrdi müjde bir gice nâgâhiden
Geldi Cibrîl-i Emîn dergâhiden

فالشاعر يبين أن الله اختار النبي عليه السلام، وجعله سيد الكائنات لأنه المخلوق الأوحد الذي فاق بأنواره بقية المخلوقات الأخرى، لذلك أرسل إليه جبرائيل ليبلغه ببشرى الاصطفاء والاختيار، ويخبره برغبة الله في اللقاء والمعراج. فهو المخلوق الوحيد في هذا الوجود الذي يليق بالمعراج والوقوف بين أنوار لحضرة الإلهية. جاءت البشرى ليلا ليتبدد ظلام الفراق، وينطلق الرسول في رحلة قدسية عبر البراق من بيت الله الحرام نحو المسجد الأقصى رفقة جبرائيل عليه السلام. إنها رحلة تحمل في داخلها عدة مشاعر ودلالات وإيحاءات، حاول الشاعر أن يقدمها لنا في تصوير فني مفعم بالمشاعر الروحانية وبالعشق الإلهي الذي فاض في تلك الليلة على كل المخلوقات باصطفاء الرسول عليه السلام لكي يمثلها في ليلة الإسراء والمعراج. تلك الليلة التي ستغير من مسار التاريخ البشري، وتتنزل فيوضات الله ورحماته ونفحاته على كل البشرية. لقد اختار الله من بين مخلوقاته محمدا عليه السلام لأنه الوحيد الذي يليق بالمعراج وباللقاء في حضرة الله العلية، كما أن الله اختار بيت المقدس كأفضل مكان في الوجود يليق بحدث الإسراء والمعراج نحو السماء. وقد عبر الشاعر عن هذا بقوله:[30]

Var idi yanınca cennetden Burâk
Kim basardı ayağın 424ayet ırak
Çün süvâr oldı Burâk'a Mustafâ
Mescid-i Aksâ'ya geldi bâ-safâ

لقد تشرف المسجد الأقصى بهذا الشرف الذي حازه النبي عليه السلام، فهو المكان الأقدس الذي تليق به لحظة الإسراء والمعراج، وهو المكان الأفضل الذي يستحق أن يعمه نور النبي عليه السلام وهو يصلي بكل الانبياء في المسجد الأقصى. وهنا نلاحظ أن كل المعاني القرآنية والنبوية يوردها الشاعر حاجي عزت باشا مختصرة في معراجيته الرائعة التي تكشف عمق هذه المشاعر العثمانية المتدفقة تجاه النبي وتجاه الإسراء والمعراج، وتجاه بيت المقدس. لم تكن هذه الأبيات الشعرية إلا مرآة عاكسة لحالة الحب والاهتمام الذي كان يكنه العثمانيون بمختلف شرائحهم الاجتماعية ونخبهم السياسية والفكرية والأدبية للنبي عليه السلام ولليلة الإسراء والمعراج ولبيت المقدس المشرف. لقد كان العثمانيون في احتفالاتهم بليلة الإسراء والمعراج يتغنون، وينشدون في المساجد مثنوية المعراجية، ويعبرون عن شوقهم وحبهم لهذه الحادثة وللنبي عليه السلام ولبيت المقدس الذي شرف الله بحادثة الإسراء، وميزه عن بقية بقاع الكون. لذلك كانت هذه المعاني حاضرة في الوعي الجمعي العثماني ولدى الشعراء والسلاطين، مستلهمين ذلك من المعاني التي ذكرها القرآن وذكرتها السيرة النبوية.[31]

إن المعراجية تعد واحدة من أهم المصادر العثمانية التي تناولت حادثة الإسراء والمعراج، وكشفت عن مدى أهمية بيت المقدس في نفوس العثمانيين. من جهة أخرى لم تكن المعراجية مجرد قصيدة تتلى في الاحتفالات الدينية العثمانية، خصوصا في ليلة الإسراء والمعراج، وإنما تحولت إلى أحد أهم الأشكال الأدبية العثمانية، وأخذت حيزاً كبيراً من الاهتمام والشرح والتحليل. لقد مثلت محوراً أساسياً في القول الشعري العثماني، ولا زالت إلى يومنا هذا تحظى باهتمام كبير من الشعب التركي ومن أدبائه وشعرائه. نريد أن نذكر هنا أن سبب إيرادنا لهذه الأبيات الشعرية وتحليلها ليس الهدف منه الوقوف على البعد الأدبي أو التصوير الفني لهذه المعراجية، وإنما الهدف من ذكر هذه الأبيات لأنها تعتبر وثيقة تاريخية ومصدراً تاريخيا مهماً يساعدنا على تقديم قراءة تحليلية من زاوية تاريخية لكيفية تعامل العثمانيين مع ليلة الإسراء والمعراج والدلالات الفكرية والسياسية والدينية التي تتضمنها، ورصد أهمية بيت المقدس في نفوس العثمانيين من خلال هذه الوثائق و النصوص العثمانية، وفي مقدمتها معراجية الشاعر مجيدي ومعراجية حاجي عزت باشا.[32]

3. الخلفية الفكرية والسياسية لاحتفال العثمانيين بمناسبة الإسراء والمعراج

إن المتأمل في الوثائق والنصوص العثمانية المتعلقة بحادثة الإسراء والمعراج يكتشف مدى أهمية هذه الليلة وهذه المناسبة في نفوس العثمانيين، سواء كان على مستوى المجتمع ومختلف شرائحه، أو على مستوى المسؤولين العثمانيين وفي مقدمتهم السلطان العثماني الذي يمثل هرم السلطة العثمانية. هذا الاهتمام المتزايد بمناسبة الإسراء والمعراج نقلته لنا الوثائق والمصادر العثمانية، وكشفت ملامحه، مما يجعلنا نتساءل عن الخلفيات الفكرية والدينية والسياسية والحضارية التي كانت تحرك العثمانيين تجاه هذه المناسبة وتجاه بيت المقدس. فما هي أبرز هذه الخلفيات؟

الخلفية الفكرية لحادثة الإسراء والمعراج وعلاقتها ببيت المقدس

لا شك أن الشعوب التركية ومن بينهم العثمانيون بعد دخولهم إلى الإسلام، قد تأثروا بمبادئه وبقيمه، وشكل لهم المرجعية الفكرية التي بنوا عليها قناعاتهم وأفكارهم وتصوراتهم للحياة والمجتمع والدولة. وقد كانت حادثة الإسراء والمعراج أحد الأفكار الجوهرية التي تأثر بها العثمانيون، وأعطوها قيمة كبرى، حتى تحولت إلى ثقافة وقناعات راسخة في سلوكياتهم الحياتية، والفكرية والأدبية. وقد انعكس هذا الاهتمام بمناسبة الإسراء والمعراج على أهمية المسجد الأقصى الذي تغنى به العثمانيون في أشعارهم وفي حكاياتهم الشعبية، وفي أناشيدهم وابتهالاتهم. لقد كانت القدس حاضرة في الوعي العثماني وفي وجدانه، بل كانت القدس في نظر العثمانيين تمثل أهم الأماكن المقدسة التي لا يمكن السماح إلى أي أحد بالتعدي عليها. وقد بينت لنا المصادر العثمانية هذه الخلفية الفكرية العميقة التي يحملها العثمانيون تجاه بيت

المقدس، فهي مسرى نبي الإسلام، وهي منهج توحيد الأمة، وهي مركز اللقاء بين الأرض والسماء. هذا التصور الفكري لبيت المقدس رأيناه من خلال الأناشيد والابتهالات والمعراجيات المتعددة، مما يجعل بيت المقدس مركزية في الثقافة التركية العثمانية، انعكست على كتاباتهم الفكرية وعلى آثارهم الأدبية وحكاياتهم الشعبية، حيث تغنى بها الشعراء، وظلت هذه الأناشيد يتناقلها العثمانيون من جيل إلى جيل حتى يوم الناس هذا.[33]

الخلفية السياسية لحادثة الإسراء والمعراج وعلاقتها ببيت المقدس

إن هذا الاهتمام المتزايد بالاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج من قبل العثمانيين، خصوصاً من رجالات الدولة العثمانية وفي مقدمتهم السلاطين العثمانيون يعكس الخلفية السياسية تجاه بيت المقدس، وأهميتها في سياسة الدولة العثمانية وفي خريطة التوازنات في العالم كله. فقد مثلت بيت المقدس أحد أهم مراكز الصراع بين العثمانيين والأوروبيين، فمنذ أن تم فتحها من قبل السلطان العثماني سليم الأول سنة 1516م ازدادت أهمية بيت المقدس، وشكل فيها العثمانيون إدارة تابعة لهم لتسير الشؤون العامة في المدينة، وتحفظ الأمن فيها، وتحميها من أي تدخل خارجي، كما قاموا بترميم وإصلاحات كبيرة في القدس، وأسسوا مدارس وأوقافاً، مازال العديد موجوداً إلى يومنا هذا. لقد كان العثمانيون يدركون أهمية بيت المقدس الاستراتيجية والسياسية، كما كانوا يدركون أهميتها الدينية، لذلك سعوا إلى حمايتها وحماية التنوع الديني الموجود فيها. وكان السلطان سليم الأول عندما دخل القدس قد أعطى عهد أمان إلى الأقليات الدينية فيها، مما حقق استقراراً دينياً ومجتمعياً تعايش فيها المسلمون والمسيحيون مع بعضهم البعض في ظل سياسة التعايش والتسامح التي كانت تمارسها الدولة العثمانية داخل بيت المقدس.[34]

لقد اهتم رجال الدولة العثمانية بالاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج، وذلك من منطلق إدراكهم بأهمية القدس، فقد حرصوا على إصدار مراسيم لتنظيم جملة من الاحتفالات خلال هذه المناسبة. وخصصوا مبالغ مالية سنوية ترسل إلى القدس، وتسمى بصرة الحرم القدسي الشريف، حيث يتم إرسال محفل الصرة في جو احتفالي جميل، يشارك فيه الأهالي مع رجالات الدولة العثمانية. وتذكر الوثائق العثمانية أن السلطان عبد الحميد الثاني كان حريصاً جداً على إقامة النشاطات والفعاليات الدينية التي تليق بمناسبة الإسراء والمعارج وببيت المقدس. وكان يشارك بنفسه في هذه الفعاليات، ويحضر كل المراسم رفقة بقية رجال الدولة والعلماء والأعيان والشخصيات السياسية والفكرية. حيث يتم قراءة المعراجية والمولد وعدة ابتهالات وأناشيد في مدح الرسول عليه السلام، والتغني بجمال هذه المناسبة، كما يصدر مراسيم بتكفل الدولة بمصاريف الاحتفال بهذه المناسبة.[35]

لقد مثلت بيت المقدس أحد أهم الملفات الأساسية في السياسة العثمانية، حيث حاول السلاطين العثمانيون، وفي مقدمتهم السلطان عبد الحميد الثاني أن يجعل من الاحتفال بليلة الإسراء والمعراج أحد أهم الوسائل لترسيخ أهمية بيت المقدس لدى المجتمع العثماني، وحثه على عدم التفريط فيها، كما كان السلطان عبد الحميد الثاني يدرك حجم المؤامرات الأوروبية التي تتربص بالقدس، وكان على علم ووعي عميق بالمشروع الصهيوني الذي كان يريد احتلال فلسطين، والاستيلاء على بيت المقدس، الأمر الذي دفع بالسلطان عبد الحميد إلى إصدار فرمانات تمنع بيع الأراضي في القدس إلى اليهود والصهاينة. لقد كان عبد الحميد الثاني حريصاً على الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج لحرصه على بيت المقدس وحمايتها من كل المؤامرات التي تحاك ضدها وضد الدولة العثمانية. وكان العقل السياسي العثماني يدرك الأهمية الاستراتيجية لمدينة القدس، وتأثيرها في خريطة التوازنات في منطقة الشرق الأوسط وفي كل العالم، كما يدرك أهميتها الحضارية في سياق الصراع بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي. لذلك حاول العثمانيون الحفاظ على بيت المقدس بشتى السبل، ومنها الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج، وتعميمها في كافة الجغرافية الإسلامية، حتى يظل بيت المقدس حيا في نفوس المسلمين.

الخلاصة

أهم النتائج التي يمكن أن نخلص إليها في بحثنا حول مسألة الإسراء والمعراج وأهمية بيت المقدس عند العثمانيين هي كالتالي:

- حرص العثمانيين على الاحتفال بكل المناسبات الدينية، وتحويل الاحتفال بهذه المناسبات إلى ظاهرة ثقافية، ترسخت بين شرائح المجتمع العثماني، وأصبحت تشكل أحد أهم الأسس الثقافية والسلوكية في الحياة الاجتماعية العثمانية.
- ساهم الاحتفال بهذه المناسبات في تقوية الروابط المجتمعية وترسيخ القيم الدينية، والارتقاء بالفرد والمجتمع العثماني روحياً ودينياً وفكرياً ومجتمعياً، وخلقت حالة من التناغم بين الدولة والمجتمع في الاهتمام بهذه المناسبات الدينية.
- لقد مثلت ليلة الإسراء والمعراج حدثاً أساسياً في الوعي الجمعي العثماني الذي كان حريصاً على الاحتفال بهذه المناسبة، انطلاقاً من قيمه الدينية الإسلامية، ومن خلال حبه للنبي عليه السلام، وكشفت قوة مشاعر الحب المتدفقة لدى العثمانيين تجاه بيت المقدس.
- لم تنحصر الاحتفالات بمناسبة الإسراء والمعراج على المستوى الشعبي فقط خلال العهد العثماني، بل كانت مناسبة يحتفل بها رجالات الدولة العثمانية وفي مقدمتهم السلاطين العثمانيون الذين كان يقيمون مراسم احتفالية في المساجد، تحضره الشخصيات السياسية والفكرية والعلمية والدينية.

- عكس اهتمام العثمانيين بالاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج مدى حبهم لبيت المقدس، وحرصهم على نقل ثقافة الاحتفال من جيل إلى جيل، وذلك بهدف جعل بيت المقدس حاضرة بقوة في الوعي المجتمعي العثماني.
- ساهمت الاحتفالات بمناسبة الإسراء والمعراج بظهور أشكالية أدبية شعرية ونثرية، مثل معراجية الشاعر مجيدي ومعراجية حاجي عزت باشا وغيرها من المعراجيات التي أصبح العثمانيون يتغنون بها في كل المناسبات الدينية، وخصوصاً في مناسبة الإسراء والمعراج.
- الاحتفال بمناسبة الإسراء والمعراج يحمل في داخله مضامين وخلفيات فكرية وسياسية ودينية كانت تحرك العثمانيين، ويعكس مدى اهتمام الدولة العثمانية ببيت المقدس وإدراكهم العميق بأهميته الاستراتيجية والسياسية في معادلة التوازنات الإقليمية والدولية.
- وعي العثمانيين بأهمية الدور الحضاري لبيت المقدس، وأهميتها الدينية والسياسية في توحيد الأمة الإسلامية ضد المحاولات الصليبية والصهيونية الطامعة في احتلالها.

الملاحق:

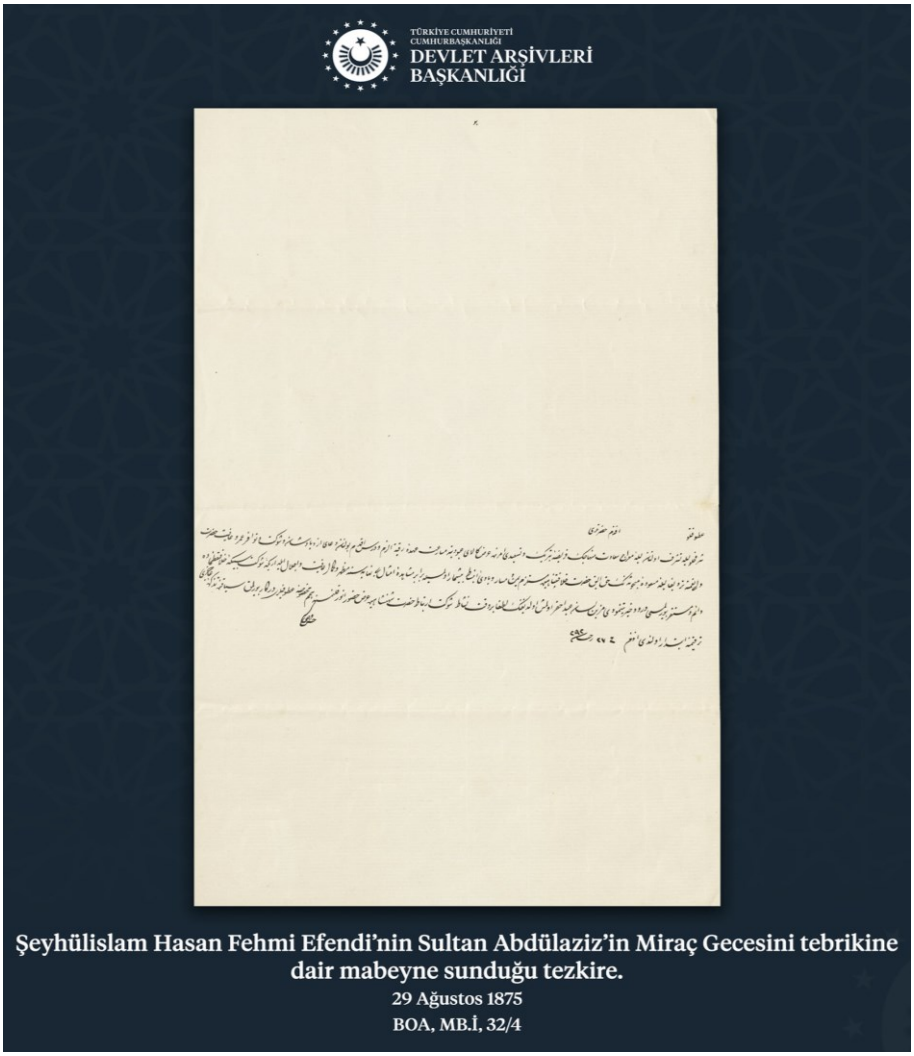

Şeyhülislam Hasan Fehmi Efendi'nin Sultan Abdülaziz'in Miraç Gecesini tebrikine dair mabeyne sunduğu tezkire.
29 Ağustos 1875
BOA, MB.İ, 32/4

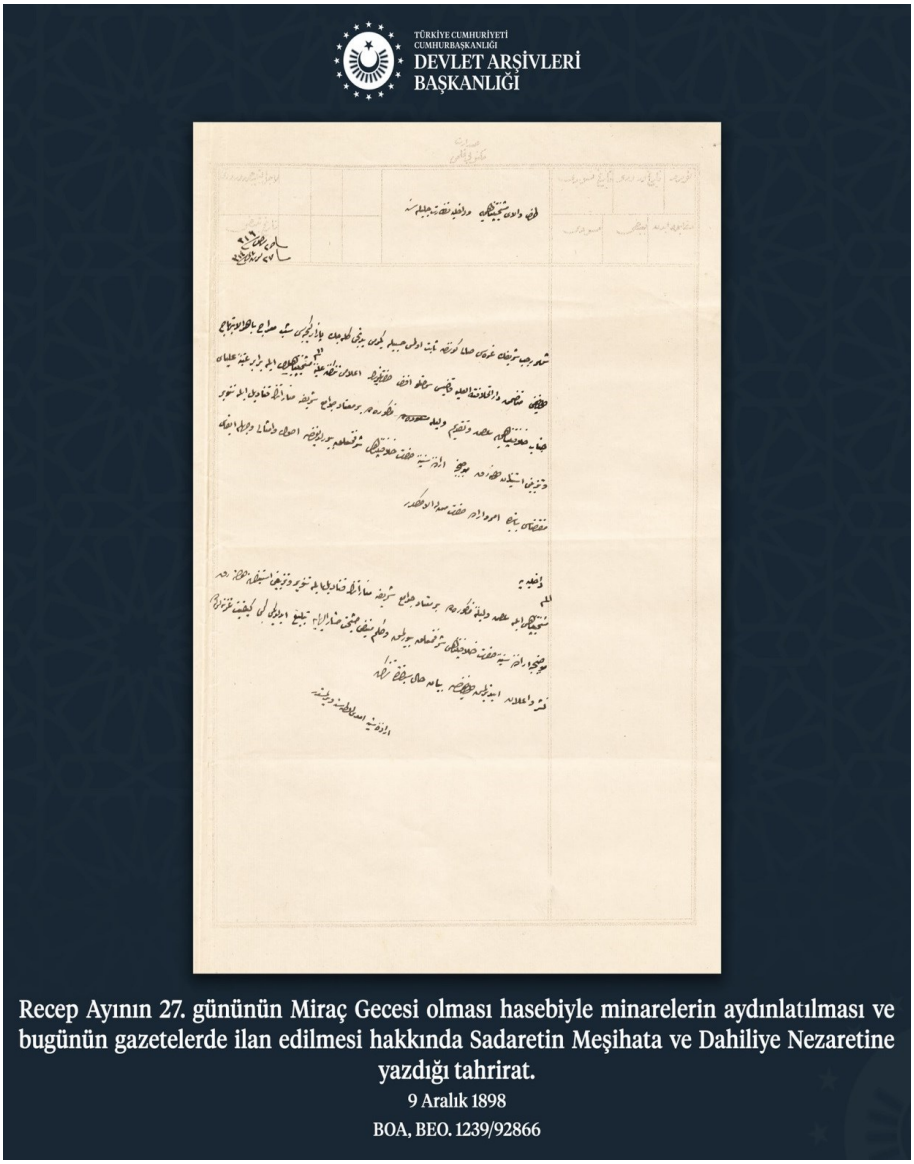

Recep Ayının 27. gününün Miraç Gecesi olması hasebiyle minarelerin aydınlatılması ve bugünün gazetelerde ilan edilmesi hakkında Sadaretin Meşihata ve Dahiliye Nezaretine yazdığı tahrirat.

9 Aralık 1898

BOA, BEO. 1239/92866

الهوامش

1 Metin Şerifoğlu, Religious minorities in Jerusalem and their role in the balance of conflict between the Ottoman Empire and European states: A Study through Ottoman Archival Documents (1517-1916), *Journal of Islamicjerusalem Studies*, 2019, 19 (3), p.445-466.

2 Özge Uslu, *1144 Numaralı Kudüs-i Şerif Surre Defteri (M.1620-21/H.1030)*, Kırklareli Üniversitesi Sosyal Bilimler, Yüksek Lisans Tezi, s.3-5

3 Yılmaz Öztuna, ''Kudüs-Suriye ve Filistin'', *Osmanlı Devleti Tarihi*, C. 2, Ankara: Türk Tarih Kurumu Basımevi, T.C. Kültür Bakanlığı Yayınları / 2069, Yayımlar Dairesi Başkanlığı, Osmanlı Dizisi / 1, 1. Baskı, 1998, s. 348.

4 BOA.MB.İ,32/4

5 Mutasem Almasri, *XIX. Yüzyılın İlk Yarısında Kudüs'e gönderilen Surre-i Hümayun*, (Yüksek Lisans Tezi), Ondokuz Mayıs Üniversitesi, Sosyal Bilimler Enstitüsü Tarih Anabilim Dalı, Samsun, (2015), YÖK Ulusal Tez Merkezi (Tez No. 425449), s. 9.

6 Balıkhane Nazırı Ali Riza Bey, Eski Zamanlarda İstanbul Hayatı, Haz. Ali Şükrü Çoruk (İstanbul: Kitabevi Yayınları,2011), s.193

7 Mehmet Şeker, ''Mevlid'', Türkiye Diyanet Vakfı İslam Ansiklopedisi, İstanbul Türkiye Diyanet Vakfı Yayınları 2003, 29/s. 479-480

8 BOA,(A,TŞF),1/70

9 BOA,(TS, MA,E),607/49

10 BOA,(TS, MA,E),541/50

11 BOA,(ML, EEM),166/20

12 Şemseddin Sami, Kamus-ı Tuki, Enderun Yayınları ,İstanbul 1989,s.667

13 Halit Ünal, ''Berat Gecesi'', Türkiye Diyanet Vakfı İslam Ansiklopedisi ,Türkiye Diyanet Vakfı, İstanbul 2033, s.5/475

14 M. Baha Tanman, ''Kadir Alayı'' Dünden Bugüne, İstanbul Ansiklopedisi, Türkiye Ekonomik ve Toplumsal Tarih Vakfı, İstanbul 1993, 4/369-372

15 BOA,(ML, EEM),126/25

16 BOA,(Y,PRK,ZB),14/122

17 BOA,(Y,PRK,ZB),14/122

18 BOA,(ML, EEM),166/20

19 Ekrem Karadeniz, Türk Musikisinin Nazariye ve esasları (İstanbul: türkiye iş bankası kültür yayınları,2013), s. 162

20 Özdamar,islambol geleneğinde doğumdan olüme musiki, s.136-139

21 Ekrem Karadeniz, Türk Musikisinin Nazariye ve esasları,s.162-163

22 H.İbrahim Demirkazık, Mecidinin Miraciyesi, Türkish Studies İnternational Periodical For The Languages, Literatue and History of Türkish or Turkic, Volüme 10/8 , Spring 2015,p.849-886

23 H.İbrahim Demirkazık, Mecidinin Miraciyesi, 849-886

24 H.İbrahim Demirkazık, Mecidinin Miraciyesi, s. 858

25 H.İbrahim Demirkazık, Mecidinin Miraciyesi, s. 858

26 H.İbrahim Demirkazık, Mecidinin Miraciyesi,s. 859

27 H.İbrahim Demirkazık, Mecidinin Miraciyesi,s. 861

28 Adem Ceyhan-Bülent Şığva, Hacı İzzet Paşanın Bilinmeyen Bir Eseri: Mi'râc-ı fahr-i Âlem, Eski Türk Edebiyatı Dergisi, cilt 2,sayı:2,2ağustos 2019, s. 869-911.

29 Adem Ceyhan-Bülent Şığva, Hacı İzzet Paşanın Bilinmeyen Bir Eseri: Mi'râc-ı fahr-i Âlem, s.884-885

30 Adem Ceyhan-Bülent Şığva, Hacı İzzet Paşanın Bilinmeyen Bir Eseri: Mi'râc-ı fahr-i Âlem, s.884-885

31 Balikhane Nazırı Ali Riza Bey, Eski Zamanlarda İstanbul Hayatı, Haz. Ali Şükrü Çoruk (İstanbul:Kitabevi Yayınları,2011),193

32 BOA,(Y, PRK,ZB),14/122
33 BOA,DH.MKT.2067/51
34 Metin Şerifoğlu, *Beşeri Bilimler açısından Bir Arada Yaşama Kültürü ve Biçimleri*, (Ankara, Sonçağ Akademi 2020),330-361
35 BOA,(ML,EEM),166/20